

ZEKERİYA TAMİR'İN ÖYKÜLERİNDE YER ALAN KARAKTERLER

Mustafa ÖNCÜ (*)
Newrooze MAHMOOD (**)

Özet

Modern Arap Edebiyatının bir çeşidi de öyküdür. Diğer Arap ülkelerinde olduğu gibi Suriye'de de bu edebî tür 20. yy da yaygınlık kazanmıştır. Suriye'de öykü yazarlarının en önemli simalarından biri Zekeriya Tamir'dir. Tamir öykü, kısa öykü, çocuk öyküleri, siyasi ve edebî makaleler türünde birçok eser yazmıştır. Bunlardan bazıları Türkçe, İngilizce, Almanca, Fransızca gibi belli başlı dillere çevrilmiştir. Tamir öykülerinde tarihi, edebi, halk kültüründen, yöneticilerden, din adamlarından ve kadınlardan birçok karakter canlandırmıştır. Bu makalede Zekeriya Tamir'in öykülerinde canlandırdığı bu karakterler ele alınmıştır.

Anahtar Kelimeler: Suriye, Zekeriya Tamir, Öykü.

The Characters in the Stories of Zakaria Tamer

Abstract

The story is a kind of modern Arabic literature. This literary genre as in other Arab countries, has been prevalent in Syria in the 20th century. Zakaria Tamer is one of the most important figures in the history of the Syrian short stories. Tamer wrote several works on the political and literary articles, stories, short stories and children's stories. Some of them has been translated into major languages like Turkish, English, German, French. Tamer, in their stories were portrayed historic, literature, folk culture, managers, religious leaders and many of the women characters. In this article these characters of portrayed in his stories were handled.

Keywords: Syria, Zakaria Tamer, Story.

*) Yrd. Doç. Dr., Dicle Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arap Dili ve Belagati,
(e-posta: mistefaoncu63@hotmail.com)

**) Yüksek Lisans Öğrencisi, Dicle Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arap Dili ve Belagati

الشخصيات في قصص زكريا تامر

مدخل

القصة القصيرة نوع من أنواع النثر في الأدب العربي الحديث. وهي تمثل نصاً أدبياً يروي حكاية هادفة، محدودة في زمانها ومكانها وأحداثها، تتفاعل فيها شخصيات قليلة العدد.

ولعل أهم ميزات القصة هي أن تكون هناك وحدة عضوية وترابط داخلي بين الشخصيات والأحداث فيها، وذلك ضمن إطار زمان ومكان محددين. كما يعد من اللازم فيها اتصافها بالتركيز والتكثيف في تصوير الأحداث، وخلوها من الحشو والاستطراد، وهذا ما يميزها عن الرواية.

يعد زكريا تامر من أبرز الرجال في ساحة القصص في سوريا، خاصة في القصص القصيرة، ألف تامر كثيراً من القصص، وبعض منها ترجم إلى لغة متعددة، من بينهم اللغة التركية.

إنَّ الشخصيات مرتكز أساسي في قصص زكريا تامر، يعتمد عليها اعتماداً أساسياً في بناء القصة، بينما يعتمد كثير من كتاب القصة على الحدث. إنه لصيق بمجتمعه، يختار منه شخصياته بذكاء حاد، وما يهيمه في الشخصية طبيعتها الاجتماعية، وليس الاسم أو الهوية، أو غير ذلك، ولذلك يمكن وصفها بالشخصية الجماعية.

1- القصة القصيرة في سوريا:

يعد علي خلقي في مجموعته القصصية " ربيع وخريف " الصادرة سنة 1931م رائد القصة السورية. ويمكن رصد تطور القصة في سوريا، وأهم أعلامها من خلال مراحل عدة-، تتوافق مع التطورات السياسية والاجتماعية فيها.

بدأ زكريا تامر حياته الأدبية في مرحلة توصف في البحوث المتعلقة بتاريخ القصة السورية بمرحلة استواء الفن (1959م - 1968م). وتعد هذه المرحلة من أبرز مراحل تاريخ القصة السورية، لتأثر الإبداعات بالتحولات السياسية الهائلة التي حصلت في سوريا والوطن العربي، مثل الوحدة السورية - المصرية التي رأى فيها الكثيرون حلماً قومياً تحقق-، ثم انكسر بسرعة، مما تسبب في تمزق الشخصية العربية، ومثل وصول حزب البعث إلى الحكم رافعا شعارات حماية مصالح الفقراء.

بدأت هذه الخطوات براءة نظرياً، ولكن تطبيقاتها العملية الفاسدة وغير العادلة أفرزت فئة ضمن الطبقة الحاكمة استغلت نفوذها، وحققت لنفسها منافع خاصة ألهتها عن مهامها في إدارة الدولة. وكان ذلك بداية الفساد في الحكم الذي استشرى وتضاعف في السنوات اللاحقة .

وفي أواخر هذه المرحلة حلت نكسة حزيران 1976م حيث دخلت سوريا مع إسرائيل في حرب غير متكافئة ، ودون تحضير واستعداد ، وخسرت أجزاء من أراضيها، وانتكست النفوس والمشاعر القومية الحاملة بتحرير فلسطين وتحقيق الوحدة العربية الشاملة وغيرها من الأحلام البراقة غير المناسبة مع حقيقة الحكم المستبد الفاسد وشوفينية حزب البعث.

ولكن بزوغ نجم زكريا تامر كان في المرحلة التالية التي توصف بمرحلة التنوع المثمر (1969 – 1979 م). وهي مرحلة قصيرة تعد من أغنى المراحل، من حيث المدى الواسع لنضج التجارب القصصية السابقة والجديدة، والزيادة العددية الكبيرة في النتاجات المنشورة، والحرص المستمر على التجديد الفني، وتطوير إمكانات اللغة ودلالاتها، وتمازج تيارات ومدارس فنية متنوعة، وظهور تقنيات جديدة في السرد الفني، وفيض المشاعر لدى القصاص . وبرزت أسماء أدبية لامعة أخرى خالها، مثل : وليد إخلاصي وجورج سالم وغيرها.⁽¹⁾

هاجر تامر بعد ذلك من سوريا ، ولكنه حملها معه في قلبه وذاكرته، وظل يحن إليها ، ويسرد حكايات القهر التي عاش فيها.

2- حياة زكريا تامر :

ولد زكريا تامر سنة 1931م، في حي شعبي ضمن مدينة دمشق، لأسرة فقيرة. اضطر بسبب الفقر إلى أن يتروك المدرسة بعد التعليم الابتدائي، وعمره ثلاث عشرة سنة (1944م). وتحوّل إلى العمل في مهن يدوية متفرقة، حتى استقر على العمل حدّاداً في معملٍ للأفقال. أحبّ مهنته، واستمر يزاولها حتى سنة 1956م، وكان خلال تلك الفترة يقرأ بشغفٍ قراءات متنوعة، وله محاولات في كتابة القصة القصيرة، ونشر أولى قصصه في السنة ذاتها.

⁽¹⁾ راجع: الخطيب، حسام: القصة القصيرة في سورية، وزارة الثقافة، دمشق 1982؛ الحسين، أحمد حاسم: القصة القصيرة السورية

انتقل إلى العمل في مجال الصحافة، وتابع تثقيف نفسه، وأقبل على مطالعة التراث الأدبي العربي والعالمي، وأعجب بأعمال الأوروبيين مثل سارتر، كافكا، كامو، وغيرهم، والمذاهب الأدبية الأوروبية الحديثة. وقد أثرت هذه القراءات في أسلوبه التعبيري الفني.

صار موظفاً في وزارة الثقافة السورية سنة 1960، وبدأ يثبت حضوره وتميزه، فشغل مناصب عدة في الوزارة تتعلق بتحرير المجلات الأدبية، وأعمال النشر. كما تميز دوره بمرور الزمن في "اتحاد الكتاب العرب"، وبرع في تنشيط الاهتمام بأدب الأطفال من خلال مجلة "أسامة" التي كان يتأص تحريرها، ومجموعاته القصصية العديدة الموجهة إلى الأطفال.⁽²⁾

ثمة أمور عدة اتسمت بحياته الشخصية، وهي:

- 1- ندرة المعلومات عن أسرته، وتكتمه عن إيضاها، فلا نعلم غير أنه متزوج وله أبناء.
- 2- انغلاقه على ذاته، وعزلته عن المجتمع الأدبي والثقافي في دمشق خاصة، وسوريا عامةً.
- 3- تعلقه الزائد بمدينة دمشق وأحيائها الشعبية، مما جعلها المكان الأبرز في عالمه القصصي. يقول في ذلك: نعم، إني أحب دمشق، لأني أحسن أهما المدينة التي سأسقط يوماً ميتاً فوق أرضها. وأحبها أيضاً لأنها تمنحني الشقاء والفرح في

(2)

Zekeriya Tamir ile ilgili Türkiye'de birçok çalışma yapılmıştır. Örneğin Halim Öznurhan'ın Zekeriya Tamir ile ilgili çoğu çeviri olmak üzere birçok çalışması vardır. Ayrıca Tamir'in hayatı, eserleri, edebî kişiliği ve hikayeciliği ile ilgili bkz. Faruk Bozgöz, "Suriyeli Öykücü Zekeriyya Tamir ve Edebi Dünyası", Türkiye Sosyal Araştırmalar Dergisi, Cilt: 7, Sayı: I, Nisan 2003, s.90-110; Ahmet Bostancı, Çağdaş Arap edebiyatçısı Zekeriya Tamir : Edebi Kişiliği ve Hikayeciliği, Nun Yayıncılık, İstanbul 2007; Cihaner Akçay, Zekeriyyâ Tâmir'in Rebi' Fi'r-Remâd ("Külde Bir İlkbahar") Adlı Koleksiyonu Üzerine Bir İnceleme, EKEV Akademi Dergisi - Sosyal Bilimler -, 2008, cilt: XII, sayı: 35, s. 279-294; Ahmet Hamdi Can, Zekeriyya Tamir ve 'Ibadullah Adlı Eserinin Teknik ve Tematik İncelemesi, Basılmamış Yüksek Lisans Tezi, Erzurum 2006; Bülent Korkmaz, Suriyeli Yazar Zekeriya Tamir'in "Yalnız Bir Kadın" Adlı Öyküsünün Çevirisi, Kurgan Dergisi, Sayı 10, 2012; Erdinç Doğru, Onuncu Günde Kaplanlar, Meneviş Yayınları, İstanbul. <http://www.degirmendergisi.com/hikaye.php?isl=oku&id=10>.

آن. ومن يعتقد بوجود مدينة تمنح الفرح فقط فهو مخلوق لم تطأ قدماه أرض الواقع. دمشق مدينة شجاعة، مفعمة بالحياة وبالقدرة على التطور، وعلى هزيمة الأعداء.

4- تعلّمه في مدرسة الحياة ، فهو لم يتلق تعليماً منظماً ، بل تعلّم من الحياة والكتب أكثر مما يمكن تعلمه من المدارس. لقد صهرت تامر نار الحداثة في بوتقة الحياة العمالية، فكوّن نفسه بنفسه، وتطلع إلى التكامل الذاتي، بعدها ذاق مرارة العوز.

في سنة 1981م انتقل زكريا تامر إلى العيش في لندن، بعد أن مرّ عليه عقدان من الزمن، وهو يعاني من استبداد النظام السياسي الحاكم في سوريا، ويعايش ما يحدثه من تفتيت في المجتمع السوري، وما يمارسه من ظلم واضطهاد. وكان ينأى بنفسه عن النقد الصريح أو المواجهة، ويعبر عن مكنوناته برمزية بالغة تتجلى في قصصه لدى التحليل النقدي لها.

ما يزال يعيش في لندن، يعمل في الصحافة، ويكتب في مجال الأدب والسياسة في مجلات عربية عدة، وينتقد بصوت عالٍ ممارسات النظام السوري، ويؤكد انحيازه لصفوف الشعب الثائر من أجل حريته وكرامته.

ومن مقالات زكريا تامر المتميزة المعبرة بسخرية مرّة عن موقفه الفكري من الثورة السورية والنظام المستبد، ما نشره في موقعه الإلكتروني "مهماز" تحت عنوان: رئيسنا المقبل. جاء فيها:

الشعب السوري غاضب يطالب رئيسه بالتحني والرحيل، والسيد الرئيس راغب في تقديم استقالته والاختفاء، لكن تأخّره يرجع إلى أسباب إنسانية، فابنه البالغ من العمر تسع سنوات عومل منذ أن كان يجبو على أنه سيصبح رئيساً، وسيعدّل الدستور حتى يتاح له أن يتسلم الرئاسة في سن العاشرة، ولو قيل للطفل اليوم إنه لن يصبح رئيساً لبيكى وصاح: جدي كان رئيساً وأبي كان رئيساً. ومن المؤكد أنه سيصاب بعقد نفسية لا علاج لها، وهذا أمر لا يقبله أي إنسان شريف.

2-1- مؤلفاته :

كتب زكريا تامر القصة القصيرة، وقصص الأطفال، والمقالة الأدبية والسياسية.

ومؤلفاته هي:

- صهيل الجواد الأبيض. قصص، 1960.
- ربيع في الرماد . قصص، 1963.
- الرعد . قصص، 1970.
- هجاء القتل لقاتله . مقالات قصيرة، 1973.
- دمشق الحرائق. قصص، 1973.
- لماذا سكت النهر. قصص للأطفال، 1973.
- وقالت الوردة للسنونو. قصص للأطفال، 1977.
- النمر في اليوم العاشر. قصص، 1978.
- بلاد الأرناب. قصص للأطفال، 1979.
- الجراد في المدينة. قصص للأطفال، 1982.
- نداء نوح. قصص، 1994.
- سنضحك. قصص، 1998.
- أف !. قصص، 1998.
- الحصرم. قصص، 1998.
- قصة للأطفال نشرت في كتيبات مصورة عام 2000.

- تكسير ركب . قصص ، 2002.

وقد ترجمت أعماله إلى عدة لغات ، وهي الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية، الأسبانية، الإيطالية، الروسية، البلغارية، التركية.

3 - أنماط الشخصيات في قصصه

3-1- الشخصيات التاريخية:

يبدو زكريا تامر قارئاً واعياً للتاريخ، استلهم منه كثيراً من الأحداث ، واستنطق بشخصيات شهيرة في التاريخ الإسلامي والحديث، وأجرى معها حوارات شائقة هادفة تمثل المواجهة بين التاريخ السابق والواقع المعاصر، ووظفها رموزاً متمردة ، وسعى بذلك إلى فهم الحاضر واستشراف المستقبل.

ولعل دافعه إلى ذلك هو إحساسه العميق بالهزيمة أمام الواقع المر، وشعوره بشدة تناقضات هذا العصر، وفضاعة سياسات القمع والاستبداد إزاء الشعوب. وكأنه يستنجد بتلك الشخصيات لتشاركه في حزنه وأأسه، وتنصحه، وتنصح الشعوب بما يمكن فعله ضمن هذا الواقع المزري.

لقد اختبأ زكريا تامر خلف بعض الشخصيات ليعبر عن موقفٍ يريده، محاكماً نقائض العصر الحديث من خلالها، فعبر عن كثير من القضايا المصرية المعاصرة، وعن الغربة التي يعيشها الإنسان العربي، مقتعاً بعمر المختار وطارق بن زياد ويوسف العظمة وغيرهم.

ولم يهتم زكريا بالتحقيق التاريخي للشخصيات المنتجة، وذلك لأن الأهمية - في رأيه - لا تقع على بعث الماضي، بقدر ما تقع على إمكانية محاكمة أحداثه في ضوء المفاهيم العربية المعاصرة.

وغالبا ما يتهاوى الماضي بشخصياته أمام تأزم الحاضر وبيروقراطيته. كما أن تعامل تامر مع التاريخ جاء على أساس الاستمرارية، فاستطاع أن يدمج القدم في روح العصر دون قيود بالدلالات التاريخية، فيقبض على طارق بن زياد وعمر المختار وعمر الخيام ويوسف العظمة ، ليعيد محاكمتهم من جديد، ويلغي الفواصل بين الماضي والحاضر، والحياة

والموت، ليسلّط الضوء على حجم التناقض بين المثل والاحزان، والصمود والاستسلام، فيكشف عن أخلاق الواقع وانتهازيته".⁽³⁾

إنه يمزج الماضي المشرق بالحاضر المزيف، في صورة تدعو إلى الأسى والسخرية، في محاولة لرسم خطوط لمستقبل أفضل.

وشخصياته التاريخية عديدة، سنتوقف عند نماذج منها. فقد استنطق البطل والصحابي الجليل خالد بن الوليد الذي لقبه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ب"سيف الله المسلول"، لبراعته في التخطيط والقيادة العسكرية خلال الفتوحات الإسلامية. وذلك بأسلوب التهكم والسخرية، كي يعكس سذاجة المجتمع وهشاشة البطولات المصطنعة، وجعله يعيش هذا العصر الذي يندر أن نجد مثيلاً له فيه، ويتأثر به، فيضعف إذ لا يصادف قيماً حقيقياً له، ويلتهي بمسائل ثانوية ليست ذات قيمة، وتصل به الحال إلى أن يتحدّث مع نوع من أنواع الملح، هو ملح أندروس الفوار الذي يشربه كل صباح. إنه ترميز عميق بليغ إلى ما يمكن أن يصل إليه بطل صناديد في هذا الزمن المعاصر الرديء.

ونجده يُلبس البطل طارق بن زياد - القائد العسكري الذي قاد الفتوحات الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية أي بلاد الأندلس - ثياب العصر، ويدعه يقف أمام محقق من السلطة الحاكمة، يتهمه بتبديد أموال الدولة، لأنه أحرق السفن. يدافع طارق عن نفسه، ويبين أن حرق السفن كان إجراءً ضرورياً لتحقيق النصر. ولكن المحقق لا يهجم النصر، بل ممارسة سلطته، فيواجهه بأنه على الرغم من تلك الحجة كان يجب عليه أن يستأذن السلطة، ويحصل على موافقتها في عمله ذلك، ويتهمه بخيانة الدولة، وينقذ حكم الإعدام بحقه.⁽⁴⁾

أراد تامر أن يرمز بطارق بن زياد إلى كثير من أبطال العصر غير المشهورين الذين استسلموا في الدفاع عن الوطن وتحريره، ولكنهم عوقبوا بدلاً من المكافأة، لسبب بسيط وحيد، هو أن بطولتهم كانت ذاتية فردية، أرعبت السلطة وأخرجتها، وتجاوزت قراراتها التي كانت ذات طابع إعلامي دعائي، ولم تتحول إلى فعل حقيقي.

⁽³⁾ سليمان، نبيل- ياسين، ابو علي، الأيديولوجيا والأدب في سورية، دار ابن خلدون، بيروت 1974 ص 228، راجع للشخصيات التراثية: سامر، عبدالرحيم محمد مسعود، الشخصيات التراثية في أعمال زكريا تامر القصصية، نابلس، فلسطين 2001.

⁽⁴⁾ تامر، زكريا: الرعد، مكتبة النوري، دمشق 1970، ص 19.

ويبّنه أحمد محمد عطية إلى أهمية تاريخ كتابة هذه القصة "الذي أحرق السفن"، فقد كتبت بُعِيد مأساة نكسة حزيران 1967 التي خسرها السوريون جزءاً من أراضيهم في حربهم مع إسرائيل، وهي مناطق الجولان . وكان من أهم أسباب النكسة عدم وجود أمر عسكري لقادة الوحدات والكتائب باستعمال الأسلحة .⁽⁵⁾

وبتّ تامر الروح الانهزامية في عدد من شخصياته، خوفاً من استبداد السلطة، وحرصاً على أن لا يبدع المواطن، أو يمارس أي شيء، ولا يتنقّس، دونما إذن منها. فوصل الأمر بعباس بن فرناس العالم المسلم الأندلسي، الذي يُعَدُّ رائد فكرة الطيران، إلى درجةٍ لا يفصح فيها عن حقيقة مشروعه وإبداعه في التحليق، وراح يبرر سبب طيرانه في كل مرة بشكل يختلف عن سابقتها، ويوحى بأن الفكرة راودته عندما سئم من طبيعة حياته وعيشه، فأراد الخلاص من مجتمعه وحكامه.

لقد بدا عباس بن فرناس شخصاً ممزق الروح، حزينا، فاشلاً، فصنعت له ققطه الثلاث أجنحة ليطير بها، ويهجر الأرض الخراب إلى الفضاء الرحب.

أما المفكر السوري عبدالرحمن الكواكي الذي يُعَدُّ من أبرز رواد الحركة الإصلاحية العربية، وأشهر دعاة محاربة استبداد الحكام، فنجدته لدى زكريا تامر قد امتهن بيع التدخين على الأرصفة وفي الدروب، ناسياً أو متنكراً لمبادئه وأفكاره التي عرضها في مؤلفاته الكثيرة التي دعا فيها الشعب إلى اليقظة الفكرية، ومحاربة الاستبداد الذي يكون بوجوه متعددة وأشكال مختلفة.⁽⁶⁾ وكأنه يقرّ بذلك أن ما كتبه أو قاله لا يجدي ولا ينفع في الحياة العملية.

ويلتفت تامر إلى شخصية البطل عمر المختار، الملقّب بشيخ الشهداء، وأسد الصحراء، قائد ثورة الليبيين ضد الاحتلال الإيطالي لبلادهم. لقد قاد عمر المختار الثورة أكثر من عشرين عاماً، حتى أسره الإيطاليون، وأعدموه شنقاً.

يخصص له تامر قصة "الإعدام"⁽⁷⁾، ويصور اللحظات الأخيرة من حياته، متديلاً من أعواد المشنقة، منكمس الرأس، غير آبهٍ بالحارس الواقف بجواره. يشعر الحارس بالمدلة، فيصّب غضبه الداخلي على دمية بيد طفل يراقب المشهد المؤثر.

⁽⁵⁾ عطية، أحمد محمد: فن الرجل الصغير، اتحاد كتاب العرب، دمشق 1977، ص 102.

⁽⁶⁾ تامر، زكريا، الكواكي الجديد، مجلة الدوحة القطرية، العدد 126، 1986، ص 43.

⁽⁷⁾ تامر، زكريا، دمشق الحرائق، اتحاد كتاب العرب، 1973، ص 89.

عند ذلك يبكي عمر المختار حزناً على دمية الطفل، لا على نفسه، واستهجاناً لوحشية الإنسان المستبد الظالم ، وأماً على الطفل الليبي الذي يرمز إلى مستقبل البلاد.

وفي قصة "الجرمة" يسلط تامر الضوء على شخصية الشاب سليمان الحلبي، البطل السوري الكردي المؤمن الذي سافر إلى القاهرة سنة 1800م، وخطط هناك لقتل الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية على سوريا. لقد نَقَد عمله الجهادي، ثم دفع حياته ثمناً لذلك.

يستعير تامر الخطوط الأساسية للحادثة، ويعدّ لها في صيغة أخرى ، فنجد لديه أن سليمان الحلبي شخص متواضع، يعيش بسلام وهدوء. تعتقله السلطات و تتهمه بأنه رأى في الحلم أنه يقتل الجنرال كليبر. ينكر سليمان التهمة، إلا أن أسرته الأب، الأم، الأخت ، تشهد على صحة الاتهام. فيقول له المحقق: لماذا ولدت ما دمت بريئاً؟ أنت مجرم، وكنا نراقبك منذ أمد طويل.

إنه القرار القاطع لرموز الاستبداد ضد المستضعفين المحكوم عليهم منذ الولادة. ولا تختلف سوى المبررات الوهمية الكاذبة. وعندما تتسع دائرة الاستبداد، ويستشري الخوف في النفوس، يصبح المجتمع بغالبيته انتهازياً، يهادن المستبد.

وتروي قصة "الاستغاثة"⁽⁸⁾ قصة البطل يوسف العظمة قائد الثورة السورية في مواجهة المحتل الفرنسي، في معركة ميسلون 1920م، الذي فضّل الاستشهاد في ساحة المعركة، على الانسحاب بمذلة.

يتوقف تامر عند تمثال يوسف الذي دَبَّت فيه الروح، وهاجت الحميّة لدى سماع نداءات الاستغاثة، وراح يتحرك في دروب مدينته دمشق. يستوقفه حارس ليلي مأمور، لأنه يحمل سيفاً، ويستغرب ويستهجن، فيفصح له يوسف عن منصبه بأنه وزير للدفاع في الحكومة السورية. يستخف به الحارس قائلاً: الوزير لا يمشي في آخر الليل وحيداً ، يل يركب سيارة طويلة عريضة، والوزير لا يحمل سلاحاً، بل يرافقه دائماً شرطي مسلح بمسدس.

يستمر الحوار الساخر بينهما، ويعجز يوسف عن إقناع الحارس الذي يفترض أن يقدم له التحية والطاعة، وتتلاطم الأفكار في تفكيره، وتتضارب المفارقات بين الماضي والحاضر حتى ينتهي به الأمر إلى مستشفى المجانين.

⁽⁸⁾ تامر، زكريا ، دمشق الحوائق. ص 141.

هذه نماذج من أبطال التاريخ ومشاهيره، استلهمها تامر، وسخرها لتصوير التناقضات الحادة بين ألق الماضي وعمته الحاضر. هذه العتمة الكالحة تدفعه إلى البحث عن بصيص نور وأمل، فلا يجده في غير الماضي. ولذلك يمكن وصفه بالمتشائم من المستقبل.

3-2- شخصيات من تاريخ الأدب :

كان زكريا تامر مهتماً بقراءة الأدب في عصوره المختلفة. وقد استعار منه شخصيات شهيرة ليقدمها بروح عصرية، ولطرح مشكلات واقعية. فحوّر حقائق نعرفها عن تلك الشخصيات، وعرضها بأسلوب تحكيمي مثير ساخر.

عاد إلى الأدب الجاهلي السابق للإسلام، واستوقفته من بين مشاهيره شخصية الشاعر الصعلوك الشنفرى الذي كان رمز الثورة على القبيلة، فعوقب بالنبد عنها.

الشنفرى عند زكريا تامر يبحث عن قوم جديد من غير البشر. إنه ينفر منهم، وقد قتل تسعة وتسعين رجلاً، ثم باع سيفه، وأراد أن يتحول إلى شخص رومانسي هادئ يعشق الورد والنجوم.

يعود إلى منزله، يعيش وحدة قاتلة فلا يجد غير قطّته يتعامل معها ويحدثها عن جمال الكلمات والورد والنجوم، ولكن القطة أيضاً لا تستسيغ سلوكه وكلماته، وتحجم عليه وتحشد وجهه.⁽⁹⁾ كما يصوره في قصة أخرى يطرق الأبواب، ويسرق وينافق أحياناً.

ويذكر المتنبي في أكثر من مقالة أدبية، ويصور رحلاته وتنقلاته في مسالك الحياة، وينهي حاله بالإضراب عن نظم الشعر.⁽¹⁰⁾ كما يعرضه مقيماً في لندن في قصة بعنوان "المتنبي يغزو لندن".

وتتراكم الموم على أبي حيان التوحيدي، ويعجز عن مواجهتها، فيقرر حرق كتبه والهروب من واقعه، وينسب نفسه إلى شعب أفريقي، قاطعاً صلته بالعرب والعروبة.⁽¹¹⁾

⁽⁹⁾ تامر، زكريا، دمشق الحرائق. ص169.

⁽¹⁰⁾ تامر، زكريا، ماذا جرى للمتنبى في رحلاته، مجلة الدوحة القطرية، العدد 127، 1986.

⁽¹¹⁾ تامر، زكريا، أبو حيان يحرق كتبه، مجلة الدوحة القطرية، العدد 116، 1985.

ويقدم الرحالة ابن بطوطة في ثوب عصري مختلف، يفضل فيه أن يعيش حياة هادئة خالية من التنقل والترحال، بعد أن أدرك صعوبة التنقل بين حدود الأقطار العربية في العصر الحديث.

وفي قصة "المتهم" يتوقف عند شخصية شاعر الفرس الأكبر عمر الحَيَّام الذي نظم شعراً فريداً في العشق الإلهي بروح صوفية خالصة، اتحد فيها مع الذات الإلهية، واستخدم كثيراً من ألفاظ الخمرة، وصوّر مجالسها، مما دفع إلى اتهامه ومحاكمته.

وكرانيا تامر يستدعيه أيضاً إلى المحاكمة، ولكن لسبب غير ديني، بل ربط التهمة الموجبة للمحاكمة بسبب يتصل بالوضع السياسي والاقتصادي المعاصر. إنها تهمة نشر الترغيب بالخمرة، وهي بضاعة أجنبية، واستيراد البضائع الأجنبية من دون موافقة السلطات الحاكمة أمر يعاقب عليه القانون، لأنه قد يؤدي إلى إثارة الفوضى والتمرد على السلطة.⁽¹²⁾

3-3- شخصيات من التراث الشعبي:

نعني بالتراث الشعبي القصص والحكايات المتداولة بين عامة الناس، المتواترة من عهود قديمة، وغالباً ما تكون واسعة الانتشار بين الطبقات الشعبية باختلاف أصولها ومعتقداتها الدينية. إنها وليدة بيئة وجغرافية يمكن وصفها بالمشرق الإسلامي.

ويضاف إليها بعض الفنون؛ كالغناء والموسيقا والرقص، وكذلك ممارسات ومعتقدات شعبية سارية بين الناس.

لقد اهتم الأدباء بهذا التراث، وسعوا إلى إحيائه، واستفادوا من أبعاده ودلالاته القديمة، وأضافوا إليه عناصر كثيرة من واقعهم لتمتجح معاً، وتشكل عبراً، وتفيد دلالاتٍ جديدة هادفة.

تعُدُّ حكايات كليلية ودمنة منبعاً ثراً للتراث الشعبي. وهي حكايات هندية قديمة تحدف إلى النصح الخلقي والإصلاح الاجتماعي.

استفاد تامر من تلك الحكايات، واعتمد عليها في صياغة قصص متميزة، أبرزها قصة "النمور في اليوم العاشر"⁽¹³⁾ التي سُمِّي مجموعة قصصية كاملة باسمها.

⁽¹²⁾ تامر، زكريا، الرعد. ص 29.

إنها قصة النمر سيد الغابة الذي فقد سلطته في غابته، ولم يعد قادراً على فرض هيئته على سائر الحيوانات، فاضطر خلال عشرة أيام إلى أن يقلد الحمار، ويرقص ويصفق لسيدته، ويأكل الأعشاب. وبذلك وحده استطاع أن يحافظ على حياته.

إنه يسرد في الحقيقة حكاية الإنسان المحكوم إزاء سلطة مستبدة. يضعف ويلين، ويفقد إرادته الحقيقية وحرته التامة، ولا يستطيع مواجهة القمع والإرهاب.

ونهل تامر من حكايات ألف ليلة وليلة قصصاً ومشاهد وشخصيات عديدة. فقد أحيا من جديد حياة شهريار وشهرزاد في قصته "ربيع في الرماد"⁽¹⁴⁾، وقدمها بصورة جديدة مناسبة مع الواقع المعاصر. فشهرزاد ليست فتاة مرهفة ناعمة؛ بل هي جارة فقيرة تشقى في العثور على الحبيب شهريار. كما أن شهريار ليس ملكاً قوياً سعيداً، بل عاش حزيناً يبحث عن شهرزاد.

وبعد عناء ومشقة يلتقيان، ويتحقق الحلم. ولكن القدر يفرقهما مرة أخرى، فمدنيتهما تسقط بأيدي الغزاة. تموت شهرزاد، وبعد حين يلتقي شهريار بحسناء أخرى ويقترن بها، ويعودان معاً إلى مدينتهما المنكوبة المدمرة، ويستأنفان حياة جميلة.

إنها حكاية العشق اللاهب الذي يطفئه القدر، ولكن سيرورة الحياة تظل مستمرة، بشكل ما.

ووظف تامر حكاية علاء الدين والمصباح السحري في قصته "شمس للصغار" التي تسرد حكاية طفل صغير فقير يملك صحناً من اللبن، يلحبه طفل آخر غني، فيضايقه ويريد أن يسلب منه اللبن. وعندما عجز تعمد أن يضع في الصحن ذبابة ميتة، ثم كسره.

جلس الطفل الفقير، وراح يبكي، خوفاً من عقاب أمه. لم تطل به الحال حتى ظهر أمامه عفريت من وسط خاتم فضي مرمي على الأرض، وامتلل لرغباته وأمنيته، فما كان من الطفل إلا أن طلب بسرعة: أريد صحن اللبن لا غير.

⁽¹³⁾ تامر، زكريا، النمر في اليوم العاشر، دار الآداب، بيروت 1978، ص 54.

⁽¹⁴⁾ تامر، زكريا، ربيع في الرماد، مكتبة النوري، دمشق 1963، ص 75.

لقد أراد تامر أن يقارن بين الأمنيات، فالمألوف أن تكون في هذه الحال طلب ما يساعد على البذخ والترّف والسعادة البالغة، لكن الطفل لا يريد غير المحافظة على واقعه. لا يريد تغييراً مفاجئاً في حياته.

وتتشابه قصة "أقبل اليوم السابع"⁽¹⁵⁾ مع حكاية مدينة النحاس في ألف ليلة وليلة. فأهل المدينة أناس من خشب، يفعل ساحرة شريرة. يطل بطل القصة فجأة على مسرح الأحداث، وهو شخص سئم حياته، وراح يفكر في الانتحار، ولكن بعد أن يتحول في أحياء مدينته كلها، يتأمل حياة الناس الذين صاروا من خشب.

فجأة، وإرادة مجهولة، يكون له الفضل في عودة الحياة إلى الناس الذين يمر بهم. ولكن المفاجأة الصادقة له هي أن لا أحد يهتم بما يحصل من تغيير، ولا أحد يقدر عمله وتضحيته، ويشكره. فيندم ويعجز عن التكيف مع هؤلاء الناس الذين يجحدون فضله.

نلاحظ في هذه الرموز المستلهمة من التراث الشعبي عامة، أنها تعكس حال الفقير الضعيف في مواجهة الطبقة الغنية أو المستبدة.

3-4- شخصيات من البيئة الشعبية الدمشقية:

عاش زكريا تامر في حي البحصّة الدمشقي الشعبي؛ فاخترت ذاكرته صوراً كثيرة منها، ومن أحياء دمشق القديمة الأخرى. لقد صوّر في قصصه شخصيات عدة منها، وبيّن طبيعة تفكيرها، واهتماماتها، وسلوكها، ولباسها، وغير ذلك. وعرض خلال ذلك عدداً من المواويل الشعبية والحكايات والممارسات الخرافية المتداولة في تلك الأحياء.

ركز تامر على شخصية الرجل (القبضاي) الشهم الشجاع الذي شاع وجوده في معظم أحياء دمشق، في مطلع القرن العشرين الميلادي. ففي قصة "ليلة من الليالي" يصور أحد أهم (قبضايات) دمشق (الشام)، ويدعى أبا حسن. إنه شديد الافتخار والتباهي بشأريه المفتولين، رمز الرجولة والقوة والشهامة. يثبت ذاته في مواقف عديدة، وينال إعجاب الناس، ويشتهر، حتى يصل إلى أنه ينال إعجاب ابنة الملك، ويتزوجها.

(15) تامر، زكريا، دمشق الحرائق. ص39.

أما صياح وقاسم في قصة "الراية السوداء"⁽¹⁶⁾ فيمثلان نمطاً شعبياً جاهلاً من الرجال ، فهما يكرهان التغيير، ويتشبثان بموروثهما الشعبي كيفما كان، ويعتزان بكل قدم، ويتقيدان به في لباسهما. يصطدمان بشاب مثقف عصري مختلف في لباسه وفكره، فينشأ بينهما صراع يؤدي إلى مصراع الشاب. إنه التأكيد على صراع القيم والمفاهيم بين جيلين ، ينتهي بانتصار القديم لقوته وبطشه وجهله، على الحديث الذي يعتمد في قوته على العلم والثقافة.

وينتقل تامر إلى حارة السعدي في كثير من قصصه، ويصوّر شخصيات متميزة فيها. فأبو شكور وأبو قاسم أمودجان منها. في قصة " السهرة " نجدهما يذهبان إلى قبر والد أبي شكور، يجلسان بجواره في الليل، ويقيمان سهرة تصدح فيها المواويل الشعبية، ويتبادلان كؤوس الخمرة، ويغنيان ما طاب لهما، وما يروّحان به انفسهما عن اعذبة الحياة اليومية ، وقهر العيش البائس ، والمستقبل المظلم الذي يبدو السير فيه مخيفاً .

وفي قصة "شمس صغيرة"⁽¹⁷⁾ نجد شخصية أبي فهد الذي يملك خروفاً، يتحول بين يديه - بشكل خرافي - إلى ابن ملك الجان؛ الذي يعده بجرار من الذهب مقابل أن يدعه وشأنه. يتردد أبو فهد في الاختيار بين خروف يسدّ جوعه إلى حين، وذهبٍ يغيّر مجرى حياته كلها. ويتغلب الطمع على لحظات الجوع، ويختار الذهب. ولكن سكيراً متسكعاً يلحظ ذلك، يغتاله فجأة وينهب الذهب. وهكذا يفقد روحه، وتبدد أحلامه ومطامعه، ويزداد بؤس أسرته. إنه الطمع الذي فتك بصاحبه، وخطأ الفقير في أن يصير غنياً فجأة.

ويهتم تامر بتصوير حياة العرافين والمشعوذين، وتعلّق الفقراء بخدعهم وأكاذيبهم، أملاً في مفاجأة تغيّر حياتهم. ففي قصته " امرأة وحيدة"⁽¹⁸⁾ تذهب المرأة إلى عراف كي يساعدها على أن يبقى زوجها مخلصاً وفيأ لها. فيستغلها العراف المشعوذ جنسياً، بحجة أن ذلك يطرد الشياطين من داخل جسدها.

لقد كان زكريا تامر بارعاً في التوغل في ثنايا البيعة الشعبية التي عاشها شخصياً، وفي اختيار شخصيات ومفاهيم وأحداث معينة مفيدة في توضيح بنية المجتمع الدمشقي التقليدية المختلفة، وذلك بأسلوب في تخيلي يثير القارئ.

(16) تامر، زكريا، دمشق الحرائق. ص117.

(17) تامر، زكريا، ربيع في الرماد. ص41.

(18) تامر، زكريا، دمشق الحرائق، ص311.

3-5- شخصيات من عالم الحكم والسلطة:

يلمح زكريا تامر في معظم قصصه إلى أن شقاء الناس ومشكلات المجتمع ناجم عن دائرة الحكم واستبداد السلطة التي تريد الاستئثار بالقرار، وصوغ النظم والقوانين بشكل يحفظ لها حقها في تقييد حرية الإنسان، وتبعيته لها.

إنه يدرك جيداً طبيعة العلاقة السلمية بين الحاكم والمحكوم، ولكن ما يراه على أرض الواقع مختلف تماماً، بل معكوس مقلوب غالباً. فتصير قصصه مرآة تُظهر الصور الواقعية العكسية، فالغريان لديه تغرّد، بينما الحمام تنعب. والمواطن المحكوم المثقل بالهموم والظلم لا يتمنى - في ظل هذا النمط من الحكم والسلطة - غير أن يصير حصاناً! لماذا؟ لأن الحصان لا يركبه غير شخص واحد، بينما هو محكوم بأن يركبه رموز السلطة جميعاً، كلٌّ من ناحية.

يتوقف تامر عند تلك الشخصيات بدءاً من الرئيس، فيصوّره بأنه يمتلك عقلية ساذجة سخيفة، لا تتخذ قراراتها بعمق ودراسة، بل بعفوية ساذجة ونزوة عابرة. لقد أمر السلطان/الرئيس بقتل السحناء جميعاً، لأن سجون بلاده امتلأت بهم، وثمة أعداد أخرى كبيرة في الخارج يجب أن تسجن، وتنتظر دورها، وفرصة توافر مكان فارغ.

وفي الصورة المقابلة يبدو الرئيس حريصاً على أموال الدولة التي أوّتمن على إدارتها، ولذلك لا يريد أن يصرف منها مبلغاً لبناء سجون جديدة. ولهذا السبب يجد أن القتل وسيلة مناسبة للحفاظ على أموال الدولة!

والمكلف من الرئيس أو إدارة الحكم بالاحتكاك المباشر مع المواطن والشعب هو الشرطي. والشرطي أداة قمع مغلوبة على أمرها، مرغمة على تنفيذ أهواء القيادات العليا، وعلى محاباة الأغنياء المرتبطين بالحكم بعلاقة منفعة متبادلة.

في قصة "الشرطي والحصان" يستوقف الشرطي رجلاً فقيراً يملك عربة يجرها حصان، يخدم بها الناس في أعمال النقل، لأنه سار في طريق في أولها إشارة "ممنوع المرور"، وبذلك تجاوز قانون السير. ويأمره الشرطي بأن يعود ويتراجع إلى حيثما أتى. وفي الوقت نفسه تمر سيارة فارهة مسرعة، فلا يستوقفها الشرطي، لأن صاحبها من الأغنياء.

لا يستطيع الفقير أن يعترض، ولكن الحصان بهيج، ويطرح الشرطي أرضاً. فيصير الحصان مذنباً بحق الحكومة ويحاكم ويعاقب بالإعدام في ساحة أمام مرأى الناس.

وفي قصة "الصقر" نجد الشرطي يقبض على فقير جائع بتهمة أنه يسير منحني الظهر، ويعد ذلك إساءة وتشويهاً لسمعة البلد، وعلامة من علامات الفقر والمرض أمام الآخرين الذين سينشرون إشاعات مغرضة.

يوضح الفقير بأنه بلا عمل، ومريض وجائع حقاً، فتشدد التهمة بحقه، ويعد ذلك هجوماً على القوانين التي تضمن العيش الرغيد للمواطن.

تشفق السلطة عليه، وتؤنبه، وتحذره من أن يكرر ذلك، فعليه أن يسير مبتسماً شامخ الرأس. يتوجه الفقير إلى بيته مسرعاً، ولكن شرطياً آخر يقبض عليه بتهمة أنه تئأب في الشارع، ويحكم عليه بالإعدام، لأنه مواطن غير صالح.

والوزير يكون من أبناء الشعب، وقد يكون شخصاً بسيطاً محبوباً أو ثورياً، وعندما يصير من رجال الحكم يتبدل ويتناسى بيئته ومبادئه. ففي قصة "يا أيها الكرز المنسي"⁽¹⁹⁾ نقرأ عن المعلم عمر القاسم الطيب الوفي المخلص لبيئته القروية. صار وزيراً، وفرح أبناء قريته بالحدث. وقرروا زيارته، واصطحبوا معهم سلة من الكرز الذي يحبه ابنهم الوزير. ولكنه لم يستقبلهم، وعادوا خائبين.

وشخصية القاضي تغدو باهتة، عندما تفقد مصداقيتها، وتغيب عنها روح العدالة، وتغلب عليها المداينة وطاعة الحاكم المستبد. وكذلك الصحفي الذي يفترض فيه أن يكون صوت الشعب، يكتب عن معاناته ويتابع مشكلاته، لا أن يكون أداة بيد السلطة. ذلك ما نجده في قصة عمر الخيام، فقد رأى القاضي أن الحب في شعره تمرد ومخالفة للقوانين، فالمواطن الصالح لا يجب غير أمه والحكومة، وقد خالف الخيام ذلك، وخرج عن القانون والأخلاق العامة. وقد أعانه في إدانة الخيام صحفي قدم شهادة ضده، ورأى أنه لم يمدح الحكومة في أشعاره، ولم يظهر حبه للشعب، وأكثر من تصوير حالات الحزن والفراق، وهو أمر ينشر التشاؤم بين صفوف الشعب، ويُعدّ تعاوناً مع أعداء الوطن الذي يريدون زعزعة ثقة الشعب بالسلطة الحاكمة.

وهكذا نجد أن زكريا تامر يتخذ موقفاً واضحاً من السلطة المستبدة، وقد كرر ذلك في صور شتى. ولكنه اكتفى بالتصوير الفني البارع، ولم يطرح حلولاً، ولم ينتهج نهجاً ثورياً بالدعوة المباشرة الصريحة إلى الثورة. وهو أمر نفتقده في حياته الشخصية وأفكاره السياسية عامة.

(19) تامر، زكريا، دمشق الحرائق، ص 27.

3-6- شخصيات من رجال الدين:

يكشف زكريا تامر عن حقائق تتصل برجال الدين الذين يقفون مواقف العداء من العلم والعلماء، ويسهمون في طمس شخصية الفرد باسم الدين.

فقد رأى كثيرون منهم أن كل مستجدات العصر كفر وإلحاد، وتصدّوا للعالم الذي صنع طائرة لإنقاذ دمشق، كما اتهموه بالكفر والإلحاد لأن في هذا الاختراع تقليداً لما يخلق الله ومخالفة لمشيئته. وما كان من الرجل ذي اللحية الطويلة ، رمز رجل الدين المتطرف ، إلا أن أشار قائلاً: "هذا ليس عالماً، إنه إبليس متنكر، يريد إغواءنا وإبعادنا عن ديننا"⁽²⁰⁾. فما كان من السلطان إلا أن أمر بإعدام العالم.

لقد تعمد زكريا أن يكشف عن الوجه المتطرف لرجال الدين، والذي يعكس من خلاله ممارساتهم السلبية تجاه الفرد، فرسم صورتهم - بدلالة اللحية الطويلة جداً- كجهلة لا يفقهون شيئاً، ملمحاً إلى ذلك من خلال أحد رجال الدين الذي صرح أمام حاشية السلطان بأن إبليس يتجسد في الكرة التي اخترعها العالم للأطفال.⁽²¹⁾ ولم يكتف بوصفهم بالجهلة، بل ينسب لهم الهزيمة التي حصلت في قصته "اللحي" أمام تيمورلنك الغاشم.

لقد اسهم رجال الدين في تجسيد المواقف الانهزامية بمعاونة السلطة السياسية، فدعوا إلى الخنوع وعدم المقاومة، وفق مبدأ القضاء و القدر.⁽²²⁾ فوقع في الحيرة بين حقيقة الدين الحنيف وتفسيرات رجاله الخاطئة له، ففقد الدين قداسته وضاع الفرد بين قهره وتميزه.

إن رؤية زكريا تامر إلى رجال الدين تنبثق من أفكاره السياسية، وتعتمد على نماذج معينة من رجال الدين عايشها، ورأى ممارساتها الخاطئة، وليس على فهم دقيق شامل لجوهر الدين الإسلامي وتعاليمه.

⁽²⁰⁾ تامر، زكريا، دمشق الحرائق، ص56.

⁽²¹⁾ تامر، زكريا، النور في اليوم العاشر، ص122.

⁽²²⁾ تامر، زكريا، دمشق الحرائق ، ص109.

3-7-7- شخصية المرأة :

تتنوع طبيعة الشخصيات النسائية في قصص تامر، ولكنها غالباً ما تكون ضعيفة مقهورة متخلقة طيبة طاهرة، ساذجة في سلوكها ووعيتها، مشتتة في جسدها، مغلوبة على أمرها.

إنها ساكنة جميلة، ضعيفة الإرادة، يرمقها الجميع بنظرة الإعجاب والاشتهاء، ولا يبالي بها كثيراً بعد أن ينال منها ما يحتاج. تبدو له المرأة جزءاً من الطبيعة، أو هي الطبيعة الجميلة ذاتها، وهو دائم البحث عن امرأة تعمق تمازجه مع الطبيعة، ففاطمة "امرأة جميلة ضحككتها حديقة خضراء"، وسميحة " لها جناحا عصفور"، وعباس يتمنى أن يتحول إلى هواء تستنشقه ليلى ليستقر في صميم كل خلية من خلايا جسدها.⁽²³⁾

وهو غير راض عن واقع المرأة في مجتمعه الذكوري الذي لا يهتم بغير جسدها، ولا يتيح المجال لبروز شخصيتها. إنه يرغب في أن يشكل امرأة مثالية من بنات أفكاره، يريد أن "يصنع امرأة من ذهب، وسيحبها بضراوة". ويتمنى أن تكون له امرأة صديقة يجدثها عن أحزانه، ويكي بين يديها لأحضانها، دونما حجل.

3-7-7-1- المرأة - الأم :

الأم رمز العطاء و التضحية ومنع الحنان في معظم الأعمال الأدبية، توجه وتربي، وتدافع عن الأبناء أمام سطوة الآباء. ولكن تامر لم يقدمها بهذه الصورة دائماً، بل شوّه كثيراً من مظاهرها في سياق تصوير الواقع الاجتماعي المشوّه المتناقض.

امتازت الأم بالبساطة و السذاجة والجهل والخوف، ولم تستطع أن تحقق التفاهم مع أبنائها وأحلامهم الرومانسية، ومستحجات واقعها. ففي قصة "الرجل الزنجي" تتهم الأم ابنها بالجنون، عندما تلحظ أنه يجاور نفسه أو صديقه الوهمي.⁽²⁴⁾ وفي قصة "رندا" تنتصت رندا الصغيرة إلى الأرض، فتسألها أمها عما تسمعه، فتقول رندا: إنها تسمع غناء

⁽²³⁾ الصمادي، امتنان، زكريا تامر والقصة القصيرة، المؤسسة العربية للدراسات، عمان 1995، ص76.

⁽²⁴⁾ تامر، زكريا، سهيل الجواد الابيض، مكتبة النوري، دمشق 1960، ص15.

جماًلاً. تتعجب الأم وتقول: ما هذا الحكي الأبله؟ هل تريد أن يقول الناس إن رندا مجنونة؟ الأرض مجرد تراب وحجارة. (25)

والأم امرأة مسكينة خائفة من الواقع السياسي القمعي، وتأثيره على أبنائها، ولذلك تنزلق إلى التوجيه السلبي لأبنائها، ففي قصة "الأعداء أو الأبناء" نجد الطفل يسأل أمه بعفوية وسذاجة عن فائدة العينين والأذنين واللسان. فترتعد الأم خوفاً، وتراه سؤالاً محيراً قد يجلب الخطر، فتجيب: العينان خلقتا كي يُنظر فيهما باحترام إلى الحكام المسؤولين، والأذنان كي تسمع الأوامر الرسمية والخطب السياسية، واللسان لا يفيد في شيء سوى المضغ. (26)

كما يدفعها الخوف إلى إبعاد أبنائها عن مواجهة الواقع. فالأم في قصة "الأبطال" تحذر ابنها من الاقتراب من النهر، لأنه يخطف الأطفال. ولكنها تؤكد على المثل والقيم، وتنتهي عن الكذب، فتؤنبه في القصة نفسها، لأنه يخبرها بأنه "سرق غيمة"، لأن الكذب عيب. (27)

ونجد في قصصه كثيراً من الأمهات اللواتي يسهرن على راحة أبنائهن، ويضحين من أجلهم، ويحرصن على الحنان الفياض، مثل أم أحمد في قصة "جوع"، وأم عمر في قصة "يا أيها الكرز المنسي". وقد تصل بمن الحال في سبيل أداء ذلك الواجب، إلى أن تسلكن دروب الرذيلة من أجل رعاية أبنائهن، عندما لا تجدن حلاً آخر، كما في قصة "الابتسامه".

والأم دائمة الخوف على بناتها المراهقات، من عدم قدرتهن على مواجهة إغراء المجتمع الاستهلاكي، وإغواء الرجال الباحثين عن الشهوة. ولذلك نجد في قصة "قرنفلة للإسمت المتعب" تقدم لابنتها نصائح عدة، وتتركز على أن الرجال كلهم يعبدون المرأة بذل، عندما يشمون رائحتها. ولكنهم يتعدون عنها بقرف لحظة تنطفئ شهواتهم. (28)

(25) تامر، زكريا، النور في اليوم العاشر. ص115.

(26) تامر، زكريا، النور في اليوم العاشر. ص10.

(27) تامر، زكريا، الرعد. ص85.

(28) تامر، زكريا، صهيل الجواد الأبيض، ص104.

إنها خائفة من مجتمعها المحافظ، ومن أن تنال البنات عقاباً قاسياً عندما تخالف تقاليدته، وتعلم مدى تأثير ذلك، عندما تتذكر أن أختها نوال قتلها لما رآها مع رجل عجوز، وراح يفتخر "العار يجب أن يُحمى".

ولكن موقف الأم مختلف إزاء الأبناء الذكور، فهي ترى فيهم المعيل، والرجل البديل الذي يمكن أن يعيد الفقر عن الأسرة. ولذلك لم تحزن في قصة "رحيل إلى البحر" عندما أخبرها ابنها أنه سيهاجر، بل اكتفت بالسؤال عما سيعود غنياً أم لا؟⁽²⁹⁾

3-7-2- المرأة - الزوجة :

يصور تامر الزوجة كامرأة متعبة مرهقة جسدياً ومعنوياً. إنها أسيرة وخادمة في مجتمع شرقي ذكوري، لا يد لها في اختيار الزوج شريك الحياة الدائمة، ومن واجبه الطاعة الدائمة بلا مناقشة. وهي تفتقد غالباً الحب الروحي الذي تحتاج إليه كطاقة معنوية تقويها في مواجهات أزمات الحياة اليومية.

الزوج لا يرى لها دوراً غير الإنجاب وتربية الأطفال ، وتحقيق رغباته الجسدية. ولا يرى نفسه ملزماً تجاهها بالحب والوفاء. إنها نظرة شرقية متخلفة قاسية تزيد أعباء المرأة المخلوقة الضعيفة.

ليس للمرأة أن تختار زوجها برغبتها، بل بمشيئة الأهل، ولو انتفى الحب. فأم يوسف في قصة "البدوي" لم تحب زوجها في بداية الزواج، ولكنها كفت بعد حين عن الشكوى والتذمر منه، حرصاً على سعادة أبنائها.

ويصل الاستبداد الشرقي بالزوج إلى أقصى درجاته في قصة "موت الشعر الأسود"، حيث يقول الزوج لزوجته : أنا رجل، وأنت امرأة. والمرأة يجب أن تطيع الرجل، والمرأة مخلقت لتكون خادمة للرجل. فتجيب فاطمة: إنني أطيعك، وأفعل كل ما تريد. ورغم ذلك فإن الزوج يستقبح مجرد كلامها، ويقول: عندما أتكلم يجب أن تحرسي. فتبكي الزوجة، وتمسح دموعها وتضحك خوفاً من أن يمنعها من ذلك أيضاً.

وغالباً ما تكون المرأة الأرملة سعيدة في قصص زكريا تامر، لشعورها بأنها أعتقت من العبودية وفازت بحريتها، بعد طول معاناة. فعائشة في قصة "العائلة" لا تبكي على زوجها الميت، ولا تحزن، بل على العكس من ذلك تسارع في

⁽²⁹⁾ تامر، زكريا، دمشق الحرائق ، ص263.

دفعه. ويعود لها شبابها وتشرق نضارتها رغم كبر سنّها.⁽³⁰⁾ أما في قصة "السجن" فتبكي على زوجها الميت وفاءً بالواجب، وأمام الناس، ولكنها في الليل تستسلم لنوم هادئ، ولا تفارق البسمة وجهها. وتظهر عليها يوماً بعد يوم أمارات السعادة لتحررها من قيود زوجها المستبد.⁽³¹⁾

3-7-3 -- المرأة- العاشقة المخدوعة :

تعشق المرأة بصدق، ولكن الرجل نرجسي مخادع لا تحمه غير شهوته. هذا ما يؤكد تامر في عدد من قصصه، ويعرض أبطالاً لا يعرفون معنى الحب الحقيقي السامي، بل المادي الجسدي، فتكون المرأة ضحية عشقها الصادق، والانخداع بأحاييل الرجال.

في قصة "الصفيف" تستسلم عفاف لعاشقها المزعوم ماجد، ثم تطلب منه الوفاء بوعد الزواج، ولكنه يرفض، ويهينها. وفي قصة "الرجل الزنجي" تقع فتاة في حب البطل، إلا أن أهلها يلزمونها بالزواج من رجل آخر لا تحبه. تظل الفتاة متمسكة بحبها الأول، وتنخدع بوعوده لإنقاذها، وتستسلم له. ولكنه يكذب ويتملص منها بعد ذلك.⁽³²⁾

أما الحب بين يوسف وسميرة في قصة "البدوي"⁽³³⁾ فمثال على الفارق الطبقي وتأثيراته. لقد أحبت سميرة الطالعة من بيئة فقيرة الشاب يوسف الغني ابن صاحب العمارة التي تسكن مع أهلها في قبوها المظلم. وتعلقت به تعلقاً شديداً، وفكرت بالهرب معه، بينما كان يوسف لا يبحث عن غير متعته.

لقد أدرك تامر أن المرأة- بشكل عام- ضحية عادات وتقاليد قديمة بالية، ومجتمع حديث مضطرب مليء بالتناقضات، ويصعب العيش فيه بهدوء وسلام. ولكنه يبدو - على الرغم من ذلك - سلبياً في مواقفه منها، لا يناصرها ولا يفتح أمامها أبواب الأمل والتفاؤل بوضع أفضل. وهو أمر نلاحظه في مواقف تامر من الحياة المعاصرة بجميع جوانبها.

⁽³⁰⁾ تامر، زكريا، دمشق الحرائق، ص 27.

⁽³¹⁾ تامر، زكريا، دمشق الحرائق، ص 8.

⁽³²⁾ تامر، زكريا، سهيل الجواد الأبيض، ص 15.

⁽³³⁾ تامر، زكريا، دمشق الحرائق، ص 193.

4- أسلوب التصوير الفني للشخصيات

إن الشخصية ليست هي المؤلف الواقعي الحقيقي للقصة، بل هي اختراع أو ابتداء فني من المؤلف، يوظفه لعرض فكرة أو رأي، أو لتصوير حالة من حالات المجتمع.

إن قضية الشخصية هي قضية لسانية / لغوية، فلا وجود للشخصيات خارج الكلمات، لأنها ليست سوى كائنات من صنع المؤلف، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الشخصيات أحياناً تمثل أشخاصاً حقيقين، وتعكس بعض جوانب طبيعتهم وصفاتهم، وفق صياغات خاصة بالعمل الفني.⁽³⁴⁾

4-1- أسلوب تصوير الشخصيات:

يرسم تامر شخصياته غالباً بطريقة تحليلية غير مباشرة، ويكتفي بإضاءة مظاهرها العامة، فتبدو صورتها أولية (كروكي) خالية من التفاصيل، وبذلك يتعد عن الاستطراد والحشو حرصاً على تقديم صورة أو مشهد مكثف يفني بالغرض الذي ينشده. وقد يتوقف فجأة عند عنصر معين في صورة الشخصية، ويتوسع في تصويرها، عندما يشعر بأن ذلك يفيد، أو يثير القارئ.

وهو لا يرسمها جامدة، بل غالباً ما تكون حيوية متفاعلة مع وسطها الاجتماعي، وفي حالة مواجهة مع سلبيات المجتمع، وقد تكون حيوتها نابعة من قلقها أو تمردتها، من بؤسها أو رغبتها الصامتة في الثورة. ويمكن تصنيف أسلوبه في تصويرها في شكلين، هما:

4-1-1- التصوير الداخلي النفسي، حيث يتوغل الكاتب في أعماق النفس البشرية، ويدقق، ويصور خبايا المشاعر والأحاسيس، الإيجابية والسلبية، بلا حرج، ولا مراعاة للعادات والمفاهيم الاجتماعية. فهو لا يتحرج عن ذكر المشاعر والرغبات الجنسية كيفما كانت، ولا عن البوح بالأسرار ورغبات الانتقام وغيرها.

وذكرنا تامر فنان بارع في تحليل الأبعاد النفسية للشخصيات، ويدلل على فهمه وتمكّن في تحليل النفس البشرية، وإضاءة الجوانب الجاذبة المثيرة فيها.

⁽³⁴⁾ دي فوتو، بنزار: عالم القصة، ترجمة محمد هدارة، عالم الكتاب، القاهرة 1969، ص 18.

4-1-2- التصوير الخارجي الشكلي. الذي يعتمد على رسم الملامح الظاهرة للشخصيات- وهو أمر لم يركز عليه تامر، بل غلب عليه التصوير الداخلي، ولم يستغرق في تفاصيله، لأنه لم ير فيها خدمة كبيرة للبناء الفني القصصي.

4-2- أهمية الشخصية:

إن شخصيات تامر ليست بأهمية متساوية ومكانة واحدة، بل يمكن الحديث - بشكل عام - عن نمطين منها في بنية قصصه، هما:

4-2-1- الشخصية المحورية:

هي الشخصية الأساسية في القصة، وعليها يقوم بناء الحدث وتسير مجريات القصة، وتثير اهتمام القارئ بشكل أساسي.

لعل أبرز من يمثل هذه الشخصية في قصصه هو الرجل المثقف، إيماناً من الكاتب بأن المثقف وحده قادر على تحليل الواقع، والتفكير في معنى الوجود الإنساني، والشعور بأزمات المجتمع، ولكنه في الوقت ذاته يدرك وجود الروح الانتمائية والانتهازية لدى المثقف، وعدم استعداده للتضحية، وانغماسه في القضايا النظرية، وحرصه على مصالحه الخاصة، وقد أدى ذلك كله إلى أن يعيش المثقف في حالة من الفراغ وعدم الفاعلية المؤثرة في تغيير سلبيات المجتمع. وقد أدان تامر غالباً هذه الشخصية المحورية في أعماله.

4-2-2- الشخصية الثانوية:

هي التي تدور في فلك الشخصية المحورية وتخدمها. ويغلب في قصص تامر أن تكون مثيرة جاذبة، مثل شخصية المرأة أو رجل الدين، أو تكون مرهوبة يخافها الآخر، كشخصية الأب أو الشرطي. وقد فصلنا من قبل في صورها ومظاهرها.

4-3- غلبة النزعة الفردية:

تشارك شخصيات تامر بسمات عامة، رغم اختلاف ملاحظهم ومنابتهم وبيئاتهم، وأبرز تلك السمات نزعتها الفردية، وانتفاء روح العمل الجماعي لديها.

تتمثل شخصيته المتكررة في فرد مأزوم دائم البحث عما يرتبط بذاته ، الحب، الخبز، الحرية، وهكذا، وهو وحيد في مواجهة المجتمع والحاكم، وفي البحث عما حرم منه. وتتوافق أحلامه مع ذلك فهو لا يريد وطناً مزدهراً، بل يعبر عن حزنه ومأساته بأني "لا أملك سيارة، ولا بناية شائعة في شارع لا يسكنه الفقراء، إلى غير ذلك".⁽³⁵⁾

ولذلك فإن أبطاله ليسوا ثوريين، بل مستسلمين للواقع المر ولنزعاتهم الفردية، على الرغم من أنهم يعرفون جيداً أسباب تلك المرارة وسبل التغيير في بنية المجتمع.

4-4- لغة الشخصيات:

اللغة وسيلة أساسية في بناء العمل الإبداعي المكتوب، وتشكل غلالة شفافة خارجية للنص الفني، وبما يمكن أن تسمو القصة وتزدهي بالألوان.

لقد جاءت لغة شخصيات تامر مليئة بالحدة والتوتر، ونقلت ببراعة أشكال القهر والاضطهاد والتمزق الإنساني الذي تعانيه الشخصيات القصصية.

ولغتها العربية سهلة، تتوافق مع مستوياتها الاجتماعية. وبرع الكاتب في تشكيل الصور البلاغية المثيرة، وجعل القارئ يشعر وكأنه يجوب في عالم أسطوري ملحمي أحياناً، وفي بيئة شعبية مأنوسة و مألوفة أحياناً. وقد مزج بين العربية الفصحى السهلة والعامية الدارجة.

وتبدو لغته مكثفة، تتمتع بما يسميه بعضهم "الاقتصاد اللغوي"، وهي لغة قريبة من الشعرية أحياناً، وتمتزج فيها الرمزية بالتصوير النفسي والأسلوب الإيحائي. وتتحول اللغة لديه أحياناً من أداة تعبير عادية إلى فضاءات رحبة من التبدلات الدلالية، حيث يغير المعاني المباشرة للكلمات، ويركبها في جمل ذات معان غير مألوفة، كما في كلام بطل قصة "النهر الميت"، إذ يقول: "حقدي يتسلق صخور جبال موحشة، الجراد يطفئ أفراس الحقول ... النهر ميت، لقد

⁽³⁵⁾ تامر، زكريا، صهيل الجواد الأبيض، ص35.

تمزق القناع، هذا وجهي، أنا ذبابة المدينة، النهر ذو الشفاه القائمة الذي غمر لهيها الشرس، حبيبة نضرة كسنبلة حضراء كانت نائمة، غير أن لحمها الأبيض أوقف شمساً مجنونة، ركضت في شوارع الدم المرتعد".⁽³⁶⁾

ويمكن القول - بشكل عام - إن شخصيات تامر ممزقة الأرواح، لا تجد خلاصاً في الأفق لمعاناتها. تتألم وتفصح عن مكوناتها وآلامها في انتظار مشرق شمس جديدة مختلفة، من دون أن يكون لها دور متميز، وأن تضحي من أجل ذلك.

خاتمة

تتميز الشخصيات في قصص زكريا تامر بارتباطها الوثيق بالمجتمع، وبأنها تمثل شرائحه المختلفة، ولا سيما ضمن طبقة الفقراء والمتقنين. وهي شخصيات تعي غالباً أسباب مشكلات واقعها، وتدرك حلولها، ولكنها عاجزة مسلوية الإرادة، محطمة نفسياً لا تجد في نفسها الرغبة أو القدرة على المواجهة العملية الفاعلة.

وهي لذلك متناقضة، ولا تواجه مواجهة حقيقية، بل تختلف أوضاعاً تنفّس فيها عن مكبوتاتها، وتصب غضبها على من هو ليس السبب الحقيقي. فالرجل يشعر بكامل القوة إزاء المرأة، لأنها ضعيفة، ولكنه لا يجرؤ على إظهار قوته وجبروته ورجولته أمام شرطي عجوز يمثل الحكم والسلطة.

إن عالم زكريا تامر القصصي عالم مثير مدهش، يلتصق به القارئ ولا يريد مغادرته. ولكنه من حيث المضمون يثير التشاؤم ويقوي الضعف والتردد، وقد يضعف الروح الثورية، ولكنه في الوقت ذاته قد يولد لدى بعضهم انعكاساً وتحدياً ورغبة في المواجهة، والبحث عن التغيير. ولا نعتقد أن الكاتب يريد المنحى الأخير، كما يتضح من سيرة حياته الشخصية العملية.

⁽³⁶⁾ تامر، زكريا، صهيل الجواد الأبيض، ص102.

مراجع البحث ومصادره:

- تامر، زكريا : *صهيل الجواد الأبيض*. مكتبة النوري، دمشق 1960.
- : *ربيع في الرماد*. مكتبة النوري، دمشق 1963.
- : *الرعاد*. مكتبة النوري، دمشق 1970.
- : *دمشق الحرائق*. اتحاد الكتاب العرب 1973.
- : *النمور في اليوم العاشر*. دار الآداب، بيروت 1978.
- : *أبو حيان التوحيد يجرى كتبه*. مجلة الدوحة القطرية، العدد 116، 1985.
- : *الكواكب الجديدة*. مجلة الدوحة القطرية، العدد 126، 1986.
- : *ماذا جرى للمتنبي في رحلاته*. مجلة الدوحة القطرية، العدد 127، 1986.
- الحسين، أحمد جاسم: *القصة القصيرة السورية ونقدها في القرن العشرين*. اتحاد كتاب العرب، دمشق 2001.
- الخطيب، حسام: *القصة القصيرة في سورية*. وزارة الثقافة، دمشق 1982.7
- دي فوتو، برنار: *عالم القصة*، ترجمة محمد هدارة، عالم الكتب، القاهرة 1969.
- سليمان، نبيل — ياسين، بوعلي: *الأبيولوجيا والأدب في سورية (1976 – 1973)*. منشورات دار ابن خلدون، بيروت 1974 .
- الصمادي، امتنان عثمان: *زكريا تامر والقصة القصيرة*. المؤسسة العربية للدراسات. عمان 1995.
- عطية، أحمد محمد: *فن الرجل الصغير في القصة العربية القصيرة*. اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1977.

KAYNAKÇA

- Akçay, C. (2008). Zekeriyâ Tâmir'in Rebi' Fi'r-Remâd ("Külde Bir İlkbahar") adlı koleksiyonu üzerine bir inceleme, *EKEV Akademi Dergisi Sosyal Bilimler*, cilt: XII, sayı: 35, s. 279-294.
- Bostancı, A. (2007). *Çağdaş Arap edebiyatçısı Zekeriya Tamir : Edebi kişiliği ve hikayeciliği*, İstanbul: Nun Yayıncılık,
- Bozgüz, F. (2003). "Suriyeli öykücü Zekeriya Tamir ve edebi dünyası", *Türkiye Sosyal Araştırmalar Dergisi*, 7 (I), s. 90-110.
- Can, A. H. (2006). Zekeriya Tamir ve 'Ibadullah Adlı eserinin teknik ve tematik incelemesi, Basılmamış Yüksek Lisans Tezi, Erzurum.
- Doğru, E., (2002) Onuncu günde kaplanlar, İstanbul: Meneviş Yayınları.
- Korkmaz, B. (2012). Suriyeli yazar Zekeriya Tamir'in "yalnız bir kadın" adlı öyküsünün çevirisi, *Kurgan Dergisi*, Sayı 10, 2012.
- <http://www.degirmendergisi.com/hikaye.php?isl=oku&id=10>.

صورة زكريا تامر

